

كيف تستدعي الأجراس الناس وكيف تهزمهم أصوات المدافع

«الضحيج.. تاريخ إنساني للصوت والإصغاء» مليء بالقوة والقلق



الضحيج صناعة بشرية أفسدت العالم (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

أتبية من البوقية. في هذا النقد الساخر العنيف يستشعر المرء أن الأصوات أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الناس الذين يصنعونها. لم تعد الأصوات مجرد إزعاجات بل هي إرهابات الثقافة الجماهيرية المعاصرة المزججة المستحيل إسكاتهما، ولا يريد أحد أن يسمع الأصوات، لأنه يريد أن يرى الناس. ويختتم هندي كتابه الذي جاء في ثلاثين فصلاً مؤكداً أنه ليس ثمة سبب يدعونا إلى افتراض أننا غير قادرين على التفكير بإيجابية مع أذناننا، لأنها خلال عشرات الآلاف من السنين جعلتنا في حالة استنفار شامل مع العالم من حولنا، وساعدتنا على التنقل وتتنع الزمن، وسمحت لنا بإقامة الروابط الاجتماعية وشكلت تجاربنا الروحية والثقافية وببساطة أبقنا سعداء.

مع ذلك كله ظل الاستماع مهماً لأنه فعل أخلاقي. وهذا ما سمح لنا بالكشف عما كنا نظن أنه ضحيج لا معنى له ونقدر العلاقات الاجتماعية التي تتضمنه. كانت الأصوات التي قمن بها نحن البشر عبر التاريخ، الأصوات المزججة المثيرة للقلق وكذلك الممتعة، مليئة بالمعاني. أعطت أسلافنا، ومازالت تعطينا، إحساساً بالمكان والزمان، والخطر والراحة، وشعوراً بال تواصل مع الآخرين. وجعلت منا بشراً. وبدلاً من التوجس من الصوت بصيغته المجردة، فتحن بحاجة إلى استعادة الشعور بمدى أهميته في الحياة اليومية، ومدى أهمية تلك الظاهرة التي تبدو بسيطة ألا وهي المشهد الصوتي.

وبالنسبة إلى المكون الثالث في فهم الدور الاجتماعي للصوت في التاريخ، أعني القلق، يتساءل هندي: ما الذي يجعلنا نقلق؟ عادة الغريب وغير المألوف والآخر. ولقد عزز مفهوم "نحن" و"هم" في اللحظات الحاسمة من الماضي من التمييز المتكرر بين "الأصوات" التي نطلقها و"الضحيج" الذي يحدثونه، أيا كان الـ"نحن" أو الـ"هم". في إحدى هاتين الجهتين المتقابلتين، كان ينظر إلى الأصوات بوصفها نقية ونبيلة وقيمة وثرية وجديدة، وينظر إلى الأخرى بوصفها غريبة وهمجية ووحشية ومهيمنة، أو شريرة. وباختصار هي مزيج من الضحيج يبدو بلا معنى.

ويتابع: هذا نمط رأينا في الولايات المتحدة في القرنين الـ17 والـ18 عندما رفض المستعمرون الأوروبيون لغات السكان الأصليين المنطوقة وتقاليدهم الموسيقية بوصفها أصواتاً "جهنمية". وشاهدنا ذلك مرة أخرى في شوارع فيكتوريا في لندن، حيث كان توماس كارلايل يتسكع آلة عزف الإيطالي الأصغر القليل خارج منزله لكي "تلحن" إيقاعات عديمة الجدوى. ونرى ذلك اليوم عندما نجد كاتب عمود في صحيفة بريطانية يندب خطه في سفرة السكك الحديدية عندما يضطر إلى تحمل رجل يحمل أي بؤء مزججاً وطفلاً صغيراً يعبت بهجان إلكتروني أو فتاة زاهبة

الأميركيين من أصل أفريقي، وموسيقى البلوز تعزف عبر مكبرات الصوت في المتاجر المحلية، أو تنجر عبر التوافذ المفتوحة في حيزهم، أو تخرج من الراديو في غرف المعيشة.

ويلاحظ هندي أنه في مراحل مختلفة أصبح الصوت نوعاً من منطقة تداول للثقافة الإنسانية. ويقر بوجود ميزة واحدة ثابتة إلى حد معقول للصوت ألا وهي أن الناس عموماً أكثر تسامحاً مع

البيئات الصاخبة، كلما شعروا بأن لديهم خيار الوصول لمفتاح الإغلاق، وعلى امتداد التاريخ كان الأقوياء قادرين على الوصول إليه بسهولة أكثر من أي شخص آخر. تمكنتم النخبة الحاكمة

في روما القديمة والطبقات الوسطى في إندونيسيا في القرن الـ18، في الواقع الأثرياء في كل مكان، من الفرار من صخب المدن بحثاً عن الهدوء والخصوصية. وعزل العاملون في المكاتب في مانهاتن بالقرن الماضي أنفسهم من هدير الشوارع باستخدام سخي للمواد العازلة للصوت غالبية الثمن. وعلى العكس من ذلك كان الفقراء والعاجزون أقل قدرة على مواجهة الأصوات التي يتعرضون لها، مثلما هم اليوم يعيشون بصعوبة في مساكن مترصصة بالقرب من المطار المزبجم، وهم الذين عاشوا القرون السابقة تحت ضربات الحدادين والمدافع وورش العمل الأخرى.

من الناس لها مشهد صوتي يجدون أنفسهم يعيشون فيه، وبطبيعة الحال، فإن الصوت هو قوة متقلبة: يتحرك بحرية عن طريق الهواء، ولا يستطيع أحد أو مجموعة من الناس امتلاكه أو التلاعب به، كما لو كان من ضمن ممتلكاتهم الحصرية.

وتنطوي قصة العبيد في إجاد طرق مبتكرة لأداء تقاليدهم الموسيقية والشفوية حتى في وجه القمع الصريح، أو قصة الثورة الفرنسية عام 1789 باستخدام الأغاني الاحتجاجية للتعبير عن الإشمئزاز من البوربون على ما يكفي من الأدلة على ذلك.

تداول ثقافي

يلفت الباحث إلى أن موجات التأثير التي عادة ما يكون من المستحيل فصلها، تنطوي أصواتها المختلفة العائمة على خاصية ثورية في جوهرها: وهي أن أي ضحيج تصدره مجموعة من الناس "يتسرب" إلى مجموعات أخرى منهم على مدى السمع، وهكذا فإننا في كثير من الأحيان نكتشف الثقافات الأخرى ونواصل معها من خلال الصوت. حدث هذا بين الأديان السرية المتنوعة في روما القديمة عندما استمعت الطقوس والتقاليد إلى بعضها بعضاً، وأقرضت من بعضها، وحدث ذلك مرة أخرى في وقت لاحق بعد 2000 عام عندما وجد الأميركيون البيض أنفسهم في ثلاثينات وأربعينات وخمسينات القرن الماضي يسمعون موسيقى الجاز من

الضحيج ليس دائماً مزججاً أو مثيراً للقلق، بل قد يكون مصدراً لحياة ثرية، فالضحيج يشتمل الموسيقى والكلام كما يشمل الصدى والترانيم وقرع الطبول والأجراس ومزججة الرعد وإطلاق النار وجلبة الجماهير وفرقة جسم الإنسان، والضحك والتنصت والأصوات الميكانيكية وضحيج الجيران والتسجيلات الصوتية والراديو والتلفزيون، إنه يشمل كل شيء، ويشكل عالماً أوسع للصوت والإصغاء.

تقول الرواية الأكثر شيوعاً إن الضحيج ولد وترعرع خلال الثورة الصناعية، وهذا هو رأي ابن كلاسيكو الاسكتلندي الطبيب دان ماكنزي، الذي كتب في عام 1916 الحكاية الرمزية "مدينة الضحيج". قال الطبيب "إن الطبيعة كانت هادئة ومريحة، وفي المقابل اتسمت الحضارة الحديثة بالضحيج، وكلما تطورت الحضارة أصبحت أكثر ضجيجاً".

هذا القول كان المسار الذي اتخذه مري شيفر في سبعينات القرن الماضي، عندما قال "لقد تلاشت أصوات الطبيعة بتأثير تشويش الآلات الصناعية والمنزلية معاً"، وهو المسار الذي وضعه العالم الطبيعي في مواجهة العالم الإنساني وسط مناقشات دعاة حماية البيئة.

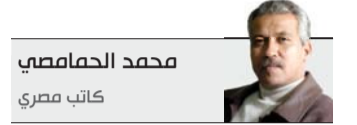
في الواقع إن المشاهد الصوتية تتغير باستمرار بطرق دقيقة وليس دائماً إلى الأسوأ. وهو ما يؤكد عليه كتاب هندي، الذي يأمل من خلاله أن يقول إن الأمر ليس مجرد قصة بسيطة عن الأصوات التي انحدرت فصارت نشازاً أكبر وغير قابلة للعودة.

ويقول هندي "إذا كان الضحيج مثل ما تقول أغلب تعريفاته هو 'صوت غير مرغوب فيه' إذا فلكي نفهم تأثيره على التجربة المعيشة فهنا صحيحاً علينا أن نعرف بالضبط من الذي يعده صوتاً مميزاً مرغوباً فيه، ومن يعده صوتاً غير مرغوب فيه في أي وقت ومكان معينين وما هو سبب ذلك، عندما ننظر إلى الماضي نظرة أوسع، حتى لو كان ذلك عن طريق سلسلة من اللقطات، فإن الجواب عن هذه الأسئلة يظهر حتماً قوياً من ثلاثة أمور متشابكة:

القوة والسيطرة والقلق". ويضيف "من بين هذه الثلاثة، فإن القوة الأكثر وضوحاً. فمن هم في مراكز القوة والسلطة، أي الحكام المدنيون والسلطات الدينية والمستعمرون المسلحون تسليحاً جيداً وملكوا العبيد ومدبرو المصانع، كانوا إلى حد كبير قادرين على فرض معايير سلوكهم على أولئك الذين ليست لهم سلطة، أي المواطنون ورجال الأعمال وشعوب الأراضي الأصليين والعبيد والموظفون وبقية العالم".

المحتلون لمراكز القوة هم من قرروا من يتحدث ومن لا يتحدث، من يصنع الضحيج ومن لا يصنع، ومن يستمع ومن لا يستمع. باختصار مارسوا سلطتهم لتشكيل المشهد الصوتي. ولكن الأمر يستحق النظر في العلاقات الإنسانية بالصوت، كيف تستدعي الأجراس الناس، كيف تهزمهم أصوات المدافع أو الطبول، أو الطلب منهم الغناء أو التزام الصمت، وتعرضهم لمستويات وحشية من ضحيج الآلات في الليل والنهار.

ويؤكد هندي أن العلاقة الوثيقة بالسلطة هي مسألة السيطرة. ويعني بذلك أن درجة السيطرة على أي مجموعة



محمد الحماصمي
كاتب مصري

يتحدث استاذ الإعلام والاتصال ومدير البحوث في كلية الإعلام والسينما والموسيقى بجامعة ساكسكس، البريطاني ديفد هندي في كتابه "الضحيج.. تاريخ إنساني للصوت والإصغاء" عن كيفية مساعدة الصوت لنا في فهم بعض الإشارة والصراع في تاريخ البشرية بطريقة جديدة متبصرة.

الأصوات لم تعد مجرد ضجيج بل هي إرهابات الثقافة الجماهيرية المعاصرة المزججة المستحيل إسكاتهما

ويتبع هندي قصة الصوت من الناحيتين الزمنية والجغرافية، تلك القصة التي تحكي الكيفية التي تعلمنا بها التغلب على مخاوفنا في عالم الطبيعة، بل ربما السيطرة عليها، وكيف تعلمنا التواصل والعيش جنباً إلى جنب مع الكائنات، وكيف خضنا الصراع مع بعضها من أجل الهيمنة، وكيف بحثنا عن الخصوصية في هذا العالم المزبجم بشكل متزايد، وكيف كافحنا مع عواطفنا وتعلمنا.

القوة والسيطرة والقلق

في كتابه الصادر عن مشروع كلمة يرى هندي أن للصوت البشري قصة طويلة ثرية بالأحداث والجوانب؛ فيما يشبه الملحمة البطولية، وكما تنتمى جلبة الجماهير في روما القديمة والصراع على السلطة بين الأغنياء والفقراء في العصور الوسطى، وضغوط عصر التصنيع، وصدمة الحرب، وظهور المدن، وثقافة وسائل الإعلام المتواصلة على مدار الساعات الأربع والعشرين.

ويرى هندي أنه مع كل هذا فإن على أذناننا أن تستمر في العمل بانسجام تام مع جوانب حمية من حياة الإنسان فيما يشبه الملحمة البطولية، وكما تذكرنا المؤرخة إليزابيث فويستر فإن حاسة السمع هي دائماً جزء من حياتنا الخاصة وأفكارنا ومشاعرنا وذاكرتنا وعبارة أخرى "هي جزء أساسي من حياتنا اليومية".

ويلفت الباحث إلى أن تاريخ العلاقة بين الصوت والتاريخ الإنساني يميل إلى أن يقال بشكل كامل تقريباً، من ناحية أنه هادي "ذلك الحين" و"صاحب" "الآن"، ولكن متى بالضبط "ذلك الحين" هذا بالطبع قابل للتقاش، كما قد يعد سبباً في قطع أي علاقة بينهما.

«بعد الرحيل» فانتازيا خيالية لرجل يتقمص أجساد الحيوانات لمؤانسة زوجته

لاحظت استمتاع الكثيرين بالقصص التي يفتق ذهنياً عنها، كان الوقت قد حان لأشراكها مع العالم أجمع. أهلاً بكم في أعماق أركان خيالي وأحلكها.

«بعد الرحيل» رواية فانتازية للناشئين تتابع رحلة بطل في تحوله من كائن إلى آخر ليخفف من حزن زوجته

ومن الجدير ذكره أن هذا الكتاب فاني أعمال الدكتورة ربي أبو علي في الترجمة الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، بعد رواية "كتاب المسافر الأكثر مبيعاً" للكاتب نفسه.

نقار خشب، من إيصال مشاعر لزوجته، قائلاً "وأما براسي كي أؤكد لها أنني من نطن، انسابت عندئذ الدموغ على وجنتيها، وغطت فمها بإحدى يديها، بينما نثت عنها شهقة مفاجئة، وضغطت بيدها الأخرى على زجاج النافذة الداخلي. ولبت بمقدوري وضع يدي على الجهة المقابلة من الزجاج كي تلمس يدها، ولكنني اضطررت إلى الاكتفاء بوضع جانب وجهي بمحاذاة النافذة. (افقدتكم كثيراً...) همست بصوت لا يكاد يُسمع".

وهكذا تقدم الرواية في كل فصل من فصولها رسالة محفزة للفكر فيتردد صداها لوقت طويل، وتحقق رؤية كاتبها ريك إنكورفيا الذي يخاطب القارئ قائلاً "هنا استحضرت والدي الذي اعتاد أن يخبرني مذ كنت فتى بإفعا أنني أستطيع نسج أجمل القصص من وحي خيالي. ولما كنت قد

كسمكة؛ كنت حمراء وصفراء، ذات نقش برنقالي وأحمر على الزعانف والذيل". ويتكلم في مقطع آخر على لسان نملة قائلاً "أبهزني ديدن المجموعة الذي يقضي بأن الواحد للجميع، والجميع من أجل الفرد؛ لقد كان حسس الالتزام والتفاني لدى النمل يفوق نظيره البشري، وتسلقت شبكة مصنوعة بالكامل من أجسام النمل، وعبرت جسراً شديده النمل بأجسادها، لم يكن شيء لينتبهني عن إيصال هداياهم إلى الملكة، واضطلعت كل نملة بدور محدد، ولم يكن نملة هواتف خلوية أو أبراج اتصالات، أو دعم جوي، حدث كل شيء بانضباط لا تشوبه شائبة".

ويصف البطل مشاعره بعد رحلة طويلة تمكن في نهايتها، وهو في جسد

وتؤكد أبو علي أن اللغة العربية "منجم ثري، وله مكان جميل تستحق أن تنتسب بها، ونعبد أبناءنا والأجيال الباقية إلى القراءة بالعربية والاعتزاز بها".

ويصف بطل الرواية حياته تحت الماء حين تحول إلى سمكة ذهبية كبيرة قائلاً "كان هناك ما هو غير طبيعي في الاستنشاق والتنفس تحت الماء، لم تكن لزغاني كفاءة أجنحتي كعسوب، نظر إلي الكثير من الأسماك وكانني كائن فضائي. أخرجون كانوا أكثر ليماً، أوْمُوُوا إلى وكانهم كانوا بشراً مثلي في سالف الأيام، وكنت من أكبر الأسماك في البحيرة، لكنني لم أستطع رؤية شكلي، واسترجعت من ذاكرة اليعسوب خاصتي كيف كنت أبدو

بعض الأحيان لا تقوم بتشغيله، وحين تفعل ذلك فإنه يكون بغرض الرد على الرسائل الإلكترونية الحزينة التي تردها من أناس يحاولون القيام بمواساتها. وتتراكم الفواتير غير المفتوحة على حافة طاولة المكتب. إلى أن تصبح غارقة في أفكارها، بينما ترسم خطاً حلزونياً بلا هدف فوق مطروف مستخدم. ويمكن القول إن هذه الرواية التي تقع في 102 صفحة، موجهة للبالغين، رغم أنها تفتح بحبكتها وأسلوب السرد فيها مجالاً للراشدين أيضاً للاندماج في الحكاية واستلهاهم الرسالة التي تقدمها لقارئها.

وترى أبو علي أن الأدب العالمي زاخر بالدر التي تستحق سير أغوارها وترجمتها إلى العربية، وهي تمنى أن تكون الترجمات عموماً حصيلة شغف وإخلاص وحب، حتى تُمكن رؤية الآخر وفهمه باللغة العربية.



«بعد الرحيل» رواية فانتازية لرجل يتقمص أجساد الحيوانات لمؤانسة زوجته